

الدلالة الاجتماعية واللغوية للتذكير والتأنيث في اللغة العربية



د . عبد الغفار حامد هلال *

وردت ألفاظ متعددة مذكرة تارة ومؤنثة تارة أخرى وذلك لاختلاف القبال في أمره تذكيرا وتأنيثا. فتؤنث الألفاظ الآتية عند المجازيين وتذكر عند بنى تميم.

ذلك (السبيل) وقد وردت في القرآن الكريم مذكرة في قوله تعالى: (وان يروا سبيل الرش لا يتخذوه سبيلا) (١) ومؤنثة في قوله سبحانه: (قل هذه سبيلي) (٢) وقوله تعالى: (وكذلك نفضل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين) (٣) قرأ ابن كثير وحفص وغيرهما: ولتستبين بالتاء على التأنيث (٤) وقرأ الأخوان وأبو بكر (ولتستبين) بالياء على التذكير.

• أستاذ علم اللغة بكلية اللغة العربية، بجامعة الأزهر.

(١) الأعراف ٤٦ والبحر المحيط ٦٤١/٤.

(٢) يوسف، الآية ١٠٨.

(٣) الأنعام الآية ٥٥.

(٤) البحر ١٤١/٤.

الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فيشرهم
بغذاب أليم ^(١١)

- الغصاع ^(١٢) فيجمع حال تأنيثه على أصع
وأصوع وعند تذكره يجمع على أصواع مثل
أبواب ^(١٣) ، وربما أنه بعض بني أسد.

- ومن الألفاظ المختلف في تأنيثها وتذكيرها
النحل ؟؟؟؟ والتمر والقير والبر ؟؟؟؟ فالتأنيث
للحجاز والتذكير لتميم ونجد وأضرأهم ^(١٤)

وكذلك جمع التكسير يجوز تذكره حملا على
اللفظ وتأنيثه حملا على المعنى كقوله تعالى: (ولهم
فيها أزواج مطهرة) ^(١٥) وقرئ (مطهرات)
وهما لغتان فصيحتان.

فإذا أسند إلى ضمير الجمع فلك فيه وجهان
أحدهما: أن تلحقه تاء التأنيث نحو الرجال قامت
فتؤنثه على تقدير الجماعة وهي حقيقة واحدة
مؤنثة.

فالسبيل في الأصل الطريق والتأنيث أغلب، وابن
السبيل لهذا المسافر الكثير السفر سمى ابنا لها
للازمته إياها ^(٥)

وورد في حديث سمرة (فإذا الأرض عند أسبله)
أي طرده وهو جمع كل للسبيل إذا أخفت وإذا
ذكرت فجمعها (أسبله) ^(٦)

والطريق تؤنث عند أهل الحجاز وتذكر عند
أهل نجد وتميم. ومما ورد من ذلك على التذكير في
القرآن الكريم (فاضرب لهم طريقا في الأرض
يسا) ^(٧) وقوله عز وجل (يهدي إلى الحق وإلى
طريق مستقيم) ^(٨) (واهدنا الصراط المستقيم) ^(٩)
وفي الحديث (إن الشيطان قدر لابن آدم بأطرقه)
هي جمع طريق على التأنيث كيمين وأيمن وعلى
التذكير يجمع على أطرقه كرغيف وأرغفة ^(١٠)

والذهب : فالقطعة منه ذهبة وينسب تأنيثها
للحجاز ومنه قوله تعالى : (والذين يكتزون

(٥) النهاية ٢ / ٣٣٨ (سبيل).

(٦) النهاية ٢ / ٣٣٩ والمذكر والمؤنث لابن الأتباري ٤٢٣ والمذكر والمؤنث لابن جنى ٧٣ والمذكر والمؤنث
للغراء ٧٨.

(٧) مختصر شواذ القرآن لابن خالديه ٣٧.

(٨) الأحقاف ٣٠.

(٩) اللغات ٦.

(١٠) النهاية ١٢٣/٣ طرق، والمذكر والمؤنث لابن الأتباري ٤٥٧ والمذكر والمؤنث لابن جنى ٧٨ والمذكر
والمؤنث للغراء ٧٨.

(١١) للتوبة ٣٤ ونظر للسان ٦ / ٦٢.

(١٢) مكيا لأهل العربية يأخذ أربعة أملا.

(١٣) الإمتاع ٢٦٦.

(١٤) المذكر والمؤنث للغراء ٣٠ ط الحلبي.

(١٥) البقرة ٢٥.

- ويعمل بعض القدماء للتذكير والتأنيث في اسم الجنس بأنه يرجع إلى المعنى مثل : النخل فهو اسم جنس يفرق بين جمعه وبين واحدة بالتاء فمفرده نخله أنه أهل الحجاز مراعاة للمعنى على معنى جماعة النخل أو طائفته وعليه جاء تأنيثه في قوله تعالى : (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا).

وقد جعل أبو حيان والجنس الذى ميز واحدة بـتاء مؤنثة أهل الحجاز ويذكره التميميون وأهل نجد

وبعض القبائل قد تأثرت بالحجاز في التأنيث فالقدر أنثى وبعض قيس يذكروها^(١٦) والذراع أنثى وقد ذكر الذراع بعض عكل وحيلالفراء الهاء في التصغير أجود وأكثر في الذراع واستشهد على تأنيثها بقول الشاعر:

أرمى عليها وهى فرع أجمع

وهى ثلاث أذرع وأصبع^(١٧)

وفي حديث عائشة وزينب رضى الله عنهما: قالت زينب لرسول الله صلى الله عليه وسلم (حسبك إذ قلبت لك ابنة أبى قحافة ذريعتها) الذريعة تصغير الذراع ولحوق الهاء فيها لكونها مؤنثة ثم نثنتا مصغرة وأرادت به ساعديها^(١٨) وأصابع اناث كلها إلا الإبهام فإن العرب على

تأنيثها إلا بنى أسد أو بعضهم فيقولون هذا إمام^(١٩) ووردت ألفاظ بالتذكير والتأنيث غير منسوبة إلى قبائلها

ومن ذلك : الخمر مذكرة ومؤنثة لغتان^(٢٠) والتأنيث أغلب كما يقول ابن حيدة الحرب مؤنثة وتذكر^(٢١) وكذل القميص تذكر وتؤنث ، ومن شعر العدنانيين قول جرير :

يدعو هوازن والقميص مفاضة^(٢٢)

ويعمل بعض المحدثين لظاهرة التردد بين التذكير والتأنيث بعللة المجاورة المكانية أو الزمانية أحيانا للكلمات المؤنثة فالرأس أنتت لمجاورتها مكانيا للأعضاء المؤنثة كالعين والأذن.

ويرى بعضهم أن كلمة مذكرة قد تحمل على كلمة مؤنثة لمشابهتها لها في صيغتها أو معناها؛ فتعامل معاملة المؤنث وهذا يرشد إلى التطور التاريخي حيث أنتت في زمن وذكرت في زمن آخر أو العكس^(٢٣)

ويتهم بعض المحدثين جامعى اللغة بأنهم السبب في نشأة كلمات تتردد بين التذكير والتأنيث فقد كانت بعض الألفاظ مستعملة في الحياة اليومية لغة شعبية لقبيلة من القبائل ، واستعملت بصورة أخرى في اللغة النموذجية الأدبية ثم جاء جامعو المعاجم فخلطوا بينهما وجمعوا هذه الصورة على

(١٦) المخصص لابن سيده ١٧٥ / ١١ ، ٢٣ .

(١٧) للمذكر والمؤنث للفراء ١٥ .

(١٨) للنهاية ١٥٨ / ٢ (فرع) .

(١٩) للمذكر والمؤنث للفراء ١٦ ، ١٥ .

(٢٠) المخصص ١٧ / ١٩ .

(٢١) للمذكر والمؤنث للفراء ١٩ .

(٢٢) للمصدر السابق ٢٥ .

(٢٣) من لسرار اللغة ١٤٤ ط ٢ .

وقد سلكت اللغات الحامية مسلكا غربيا بهذا الصدد إذ قسمت الأسماء إلى طائفتين : الأولى تتضمن أسماء الأشخاص وما يدل على أشياء ضخمة ذات أثر واضح وأخيرا تلك التي رواها تعبر عن المذكر ، أما الطائفة الأخرى فتشمل أسماء الأشياء الصغيرة القليلة الأهمية ومعها تلك التي تعبر عن المؤنث^(٢٦).

وتختلف اللغات _ أيضا _ في العلامات الخاصة لكل من المذكر والمؤنث ، فالتكلم بلغات (البانتو) في جنوب أفريقيا _ يراعى في صيغ الأسماء التفرقة بين الحى والجماد ، ولغة التوش (TUSH) إحدى لغات القوقاز - تتخذ أنواعا مختلفة من اللواحق يتصل بعضها بالأسماء حين التأنيث الحقيقى، وأخرى حين التذكير الحقيقى وثالثة تتصل بغير العاقل حيا كان أو جمادا .

والفرنسية الحديثة لا يحدد فيها تذكير الاسم أو تأنيثه علامة شكلية تلحق السم وإنما الأداة والصفة اللتان تصحبان الاسم هما اللتان تختلفان صيغة تبعا لاختلاف الجنس فالمذكر تصحب الأداة Le يقال : Le soleil : (الشمس) وهى مذكورة في الفرنسية ، والمؤنث تصحب الأداة La يقال :

أما هى اللغة الفصحى دون تفرقة بين اللهجات الشعبية المحلية والفصحى وكان عليهم أن يفرقوا بينهما ويجعلوا الاستعمالات الشعبية في مكان منزول في المعجم العربى حتى يعطينا صورة محددة للهجات هذه القبائل^(٢٤)

- ونحن لا نؤمن بأنكار هذا الباحث لأن لغة العرب لم يكن فيها شعبى وفصحى ونحن لا نؤمن بأنكار هذا الباحث لأن لغة العرب لم يكن فيها شعبى وفصحى ونحن لا نؤمن بأنكار هذا الباحث لأن لغة العرب لم يكن فيها شعبى وفصحى ونما كل لهجات العرب فصحى وانتخبت منها اللغة المثالية للعرب جميعا .

وبعد :

فالملاحظ أن اللغات تختلف في تقسيمها للأسماء من حيث التذكير والتأنيث وعلامات كل منها ، فبعض اللغات تقسم الأسماء إلى مذكر ومؤنث كاللغة العربية ، ولا ثالث لهما ، أما الفضيحة الهندية الأوربية فقد جاءت بثلاث طوائف من الأسماء لكل منها سلوكه اللغوى الخاص : أسماء للمؤنث وأسماء للمذكر وأسماء لما هو محايد^(٢٥).

(٢٤) العربية في التراث ١٣ هـ .

(٢٥) وهكذا يقول الأستاذ العقاد : وضع عقلى مخطئ لأن التقسيم الصحيح في الجنس لمتميز أنه مذكر ومؤنث وليس هناك جنس ثالث متميز يسمى بالمحايد بل هناك أشياء لاجنس لها أصلا يستعار لها الجنس على سبيل المجاز فتلحق بالمذكر والمؤنث على حسب المناسبة عند وضعها وليس هناك جنس ثالث وهو على الشذوذ كما يعرض للمذكر للشكل أة للأنثى للشكل فإنها في حقيقة التقسيم نكر غير متميز لو أنثى غير متميزة ولا ثالث للجنسين يسمى بالجنس المحايد بينهما . انظر مجلة الأزهر : عدد جمادى الآخرة سنة ١٣٨١ هـ نوفمبر سنة ١٩٦١ من مقال للعقاد بعنوان (مقارنة لغوية في ضمائر الجنس والعدد) ص ٦٥٩ .

(٢٦) من لسرر اللغة ص ٩١ .

L nnee L ansuy والاسم الأول مذكر والثاني مؤنث (٢٧) .

ويبدو الجنس في صورة خاصة في بعض اللغات الأمريكية والأفريقية ، فاللغة الألجونكية تميز بين جنس حي و جنس غير حي، ولغة الماساي في شرق أفريقيا تستخدم جنسا لما هو كبير قوى في مقابل جنس لما هو صغير ضعيف، ومثلها الأوردية ففيها تفريق بين الصغير والكبير من هذه الناحية فكلمة (با) معناها صندوق كبير و(ربي) للصندوق الصغير (٢٨) .

وقد اختلفت وجهة النظر في اعتبار المؤنث والمذكر بالنسبة للتأنيث غير الحقيقي فبينما يعتبر قوم شيتل منه مؤنثا يعتبره آخرون مذكرا تبعا لاختلاف نظر الشعوب والمجتمعات اللغوية ، وإن الشمس والقمر لمثالان رائعان لدراسة هذه الظاهرة في لغات مختلفة فالشمس مؤنثة في العربية مذكورة في الإنجليزية والقمر بالعكس (٢٩) .

بل إن اللغات المتفرعة من أصل واحد يختلف المتكلمون بها في هذا الاعتبار أيضا فكلمة (شمس) مؤنثة في العربية كما عرفنا- ولكنها في العبري والأرامية جائزة الأمرين وقد استقرت في الآشورية على التذكير ومثل (كف) التي هي مؤنثة في العبرية والسريانية جائزة الأمرين في العربية ولكنها مذكورة في الآرامية (٣٠) .

وربما تختلف النظرة باعتبار التذكير والتأنيث في لهجات اللغة الواحدة ويتضح ذلك في لهجات اللغة العربية الفصحى ، فقد روت لنا المعاجم العربية اختلاف القبائل في تذكير بعض الكلمات وتأنيثها مثل (كتاب) يستعمل مؤنثا عند بعض قبائل اليمن ومثل العضد والعجز يستعمل كل منها مذكرا عند أهل تمامة كما روى لنا أن أهل الحجاز يؤنثون الطريق والصراط والسبيل والسوق والزقاق في حين أن بني تميم يذكرون كلا من هذه الكلمات (٣١) .

ونظرا لهذا الاختلاف في الحكم بتأنيث الشيء أو تذكيره إذا لم يكن غير حقيقي لا يرى المحدثون في التأنيث اللغوي صلة منطقية فيها دقة المنطق ووضوحه للعقول والأذهان (٣٢) ويقولون : إن الجنس اللغوي يجري على منطق خاص بمعنى أن الجنس اللغوي لا يطابق الجنس في الواقع الطبيعي والاصطلاح وحده هو الذي ذكر الهواء وأنت الأرض والسماء في العربية (٣٣) .

وهذا التأنيث أو التذكير مبني على الملاحظة القائمة في أذهان المتكلمين على اختلاف لغاتهم ولهجاتهم وترك التصريح بعلامة تأنيث في تلك الألفاظ وما شاكلها هو تعبير عن هذه الظاهرة. ومن ذلك قول بعض الأعراب : (فلان لغوب

(٢٧) علم اللغة للدكتور محمود السمران ص ١٥٦ .

(٢٨) مناهج للبحث في اللغة ص ٢١٥ .

(٢٩) المصدر السابق ص ٢١٦ .

(٣٠) من أسرار اللغة ص ٩٢ ، ٩٤ .

(٣١) من أسرار اللغة ص ٩٢ ، ٩٣ .

(٣٢) من أسرار اللغة ص ٩٤ .

(٣٣) علم اللغة د . السمران ٢٥٤ .

السماء متفطر به بلدة ميتا .. إلخ (٣٥).

ويبدو لنا أن المتكلم بأية لغة من اللغات إنما يبنى اعتبار التأنيث والتذكير على أساس الوضع الحقيقي وهو ظاهر ملموس ثم يبنى على الحقيقي باعتبار الموثنات المجازية بحيث يعتد شبهها بين هذا وذاك على أساس التصور لكل منهما فإذا اتضحت للاهج صفة من الصفات تربط لفظاً أو شيئاً ما بالموثن الحقيقي أمكن اعتباره كذلك موثناً وإن وضحت صلته بالمذكر اعتبر كذلك.

فالأرض - مثلاً - اعتبرت في العربية مؤنثة وإن لم تشتمل على علامة تأنيث لأنها موطن إخراج النبات كالمرأة فهي موطن التوالد وإنتاج وكذلك السماء اعتبرت مؤنثة إذ هي تجود بالرزق والمطر وهكذا الريح والسحاب والمطر وغير ذلك .

وأما عدم اعتبارها مؤنثة في نظر كل عربي واقتراحها بعلامة تأنيث فهذا لأن التصور المذكور ملاحظة خاصة يلحظها القائل بالتأنيث وقد يختلف فيها غيره .

وكذلك يقول الأستاذ العقاد : إن هذه الكلمات التي تؤنث في اللفة العربية وهي خالية من علامات التأنيث لم تترك عندنا بغير علامة مميزة لأن اللفة عاجزة عن تمييزها بعلامة من علاماتها الكثيرة بل هي متروكة لاعتبارها أصلاً من الموثنات المجازية أو المذكرات المجازية فليس السبب هنا راجعاً إلى نقص العلامات والصيغ أو إلى قواعد

جاءته كتابي فاحتقرها) فأنث الكتاب لأنه ذهب به إلى معنى الصهيفة ، وإلى ذلك مال ابن جني من الأقدمين والأستاذ عبد الله العلايلي من المحدثين (٣٤).

ويرى بعض المستشرقين مثل رايت WRIGHT أن الخيال السامي الخصب قد أخضع في نهاية الأمر جميع الكلمات إلى أحد أمرين: إما التذكير وإما التأنيث وأنه شخص الأشياء وجعل منها أناساً ثم تصور في بعضها تأنيثاً وفي البعض الآخر تذكيراً.

كذلك يرى WEMSIMCK أن اللغات السامية حين خلعت على بعض الأسماء فكرة التأنيث قد تأثرت في هذا بعوامل دينية وبأخرى مرجعها التقاليد والمعتقدات العامة التي جعلت الساميين من قديم الزمان يرون في المرأة غموضاً وسحراً وينسبون لها من القوى الخارقة ما لم يخطر ببالهم جاءوا بعدهم ثم ضمول إلى المرأة كل ظواهر الطبيعة التي خفى عليهم تأثيرها وأشبهت لهذا في أذهانهم ما أحاطوا به المرأة من سحر وخرافة ومن تلك الكلمات كل ما عبر عن الأرض وأجزائها كالطريق والبر ثم الجهات الأربع ومعظم مظاهر الطبيعة من ريح وسحاب ومطر ، وأخيراً تلك الأسماء التي تدل على الممالك والمدن وأجزاء الجسم والأسلحة والحجارة وبعض الحيوان .

ويسبى الدكتور أنيس على هذا الأساس أن اللغة تقبل نصوصاً مثل : المرأة الكاعب والناهد

(٣٤) للخصائص ٢ (٤١٥ ، ٤١٦) ومقدمة لدرس لغة العرب ص ٢٤٣ للتعليق .

(٣٥) من أسرار اللغة السابق

منها على حين توجد في اسم هو علم على مذكر فإذا كانت في (شجرة) للتأنيث فهي في (معاوية) ليست له والألف المقصورة والمدودة لا تختص بالدلالة على المؤنث فهما في جلي وحمراء للتأنيث وفي الهوى والجوى والمباء والغناء ليست كذلك لأنها كلمات مذكورة (٣٧).

وما يلاحظه الباحثون أن العربي قسم الموجودات إلى حيوان وجماد ، والقسم الأول يتعين التذكير فيه أو التأنيث سواء وجدت به علامة فارقة أو لم توجد وهذا ما يسمى بالحفيف (٣٨).

ولكنه اضطرب في تحديد أمر ما سوى الحيوان تذكيرا أو تأنيثا ، فقد وردت ألفاظ تقع على غيره مرة مؤنث وأخرى مذكورة.

من هنا نجد اللغويين يعللون هذا بأن الأصل في الأشياء جميعها التذكير من التذكير كما قال سيبويه لأن المذكر أول وهو أشد تمكنا ، وإنما يخرج التأنيث من التذكير ألا ترى أن الشيء يقع على كل ما أخير عنه من قبل أن يعلم أذكر هو أو أنثى والشيء مذكر (٣٩).

ثم يقولون : إن الغالب على كذا هو التذكير وقد يؤنث مثل اللسان والقفا (٤٠).

واللفويون بذلك يختلفون فيما بينهم في تحديد المذكر والمؤنث اختلافا بينا فما يقطع ابن

اللغة على العموم ولكنه راجع إلى التصور النفساني السذى يوحى إلى الذهن إلحاق بعض الأشياء بهذا الجنس أو ذاك على حسب العوامل الكثيرة التي تعمل عملها في هذه التفرقة عند أبناء اللغات أجمعين (٣٦).

ولذا كان رأى رايت WRIGHT قريبا من الضواب ، وأما رأى WENINCK السابق تغير مسديد لأن السامى حين اعتبر الكلمات التي أشار إليها مؤنثة لم يكن عن غموض مناهجها في إلى حد خرافى يجعله ينسب ذلك إلى ما في المرأة من سحر وخرافة .

فهناك مكلمات كثيرة تختلف النظرة إليها من حيث التذكير والتأنيث تبعا للتصور النفساني المشار إليه .

ويرى بعض المحدثين بناء على الظاهر أن أمر التأنيث وعلاماته مضطرب في العربية وما قال به قدامى العرب من علامات التأنيث غير محددة لطبيعة الأشياء التي توصف بهذا المعنى وذلك لوجودها في مواضع كثيرة تتناقض وهذا القانون الذى اتفقوا عليه.

فالقديما يقولون : إن التاء علامة التأنيث ولكننا نرى أنها تأتي في بعض الأسماء دالة على غيره من مبالغة وغيرهما ، وقد نرى أسماء لمؤنث وهو خال

(٣٦) مجلة الأهر عدد رجب ١٣٧١ هـ - ديسمبر ١٩٦١ م من مقال للهـ* بعنوان (الصفة في اللغة العربية) ص ٧٩٠.

(٣٧) علم اللغة د. السمران ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

(٣٨) شرح للتصريح ٢ / ٢٨٥ .

(٣٩) للكتاب ١ / ٧ .

(٤٠) حاشية يس على التصريح ٢ / ٢٨٥ .

سيده بتذكيره. يميز فيه الأزهرى التأنيث .

ومن هنا يرى هؤلاء المحدثون أم تلك العلامات ليست حدا فاضلا يتميز به المذكر والمؤنث بل إن الأمر في معرفة ذلك تماما لا يمكن أن يعتمد فيه عليها وإنما (العلامات الشكلية التي تجدد تذكير الأسم أو تأنيثه في العربية تتحقق أساسا في الاستناد والصفة فالذى يبين أن السماء مذكرة أو مؤنثة هو وصفها كأن تقول : السماء الصافية لا الصانق أو الإخبار عنها كأن تقول : أمطرت السماء لا أمطر^(٤١) .

وفي شرح القدم عن القدامى _ ما يفيد ذلك مع اضافات أخرى.

فقد قال الأزهرى : إن العرب قد أنثوا أسماء كثيرة بثناء مقدرة ويستدل على ذلك التقدير بالضمير العائد عليها نحو (النار وعددها الله الذين كفروا) (وحى تضع الحرب أوزارها) (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها) فالنار والحرب والسلم مؤنثات بدليل عود ضمير المؤنث عليها.

وبالإشارة إليها نحو (هذه جهنم) فجهنم مؤنث بدليل الإشارة إليها بإشارة المؤنث وهى هذه وبشبهتها أى التاء فى تصغيره نحو : (عينه) و (أذنيه) مصغرى عين وأذغن الأعضاء المزدوجة فإن التصغير يرد الأشياء إلى أصولها ، أو بشبهتها فى فعله نحو (ولما فصلت العير) فالعير مؤنثة بدليل تأنيث فعلها ، ويسقطها من عدوه كقول حميد

الأرقط يصف قوسا عربية:

أرمى عليها وهى فرع أجمع

وهى ثلاث أذرع وإصبع

فأذرع جمع ذراع وهى مؤنثة بدليل سقوط التاء من عدوها وهو ثلاث^(٤٢)

ويرى WENINCK أن تلك العلامات ليست أكثر من علامات للمبالغة تفيد التكثر كعلامة وفهامة فى وصف مذكر وقلى وجرحى وشهداء وعلماء فى وصف بعض الجموع^(٤٣) .

والقول بأن هذه اعلامات إنما هى للمبالغة لا للتأنيث غير مسلم به فالتاء كما تكون للتأنيث تكون للمبالغة ولا مانع من الاشتراك فى الوصف إذا كان ذلك قائما على أساس معنى .

بل بلغ من اعتقاد بعض المحدثين أن فسروا هذه العلامات المذكورة تفسيراً يخالف ما ذكره أسلافنا . فليست ل علامة منها مستقلة تماماً عن الأخرى ولها مبدأها الخاص بل إن الألف بتويعها نشأت تدريجياً عن التاء.

يقول الدكتور الجرح: إن ألف التأنيث المقصورة فى العربية تطورت عن تاء التأنيث بدليل هذا التطور الموجود فى اللغة العامية مثل (نجحا) وقد ربط بين تطور العربية وتطور العربية فى هذا المقام بأن التاء تحولت إلى هاء كما فى العربية، ثم تحولت هذه البهاء إلى مدة، فالهاء عنده مرحلة وسطى بين التاء والألف^(٤٤) .

(٤١) علم للغة د. السمران ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

(٤٢) للتصريح ٢ / ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

(٤٣) دراسات فى قته للغة للدكتور صبحى الصالح ص ٨٣ .

(٤٤) القراءات القرآنية فى ضوء علم اللغة الحديث ، د. عبد الصبور شاهين نقل عن الدكتور الجرح .

هـاء التأنيث يقول:

ومما يؤيد ما نذهب إليه الإمالة في هذه الأسماء فقد رويت في القراءة الكسائي كما شاعت في الكثير من اللهجات العربية الحديثة، وهذه الإمالة لا علاقة لها ببناء التأنيث كما زعم بعض القراء بل هي مجرد إمالة الفتح قبلها^(٤٦).

ومن الممكن إذاً كما يقول الدكتور شاهين أن تكون لكل صورة منتهية الآن بالألف المقصورة أو المحذورة صورة منتهية بالتاء إلا أنها ماتت بفعل التطور اللغوي^(٤٧).

(وأما الألف الممدودة فهي تطور للمقصورة نظراً لكرهية العرب الوقوف على كل مقطع فالمقطع المفتوح قد أقفل إذاً بصوت لا وظيفة له سوى الإقفال كهاء السكت وبعد ألف السندبة) وازيداه مثلاً والأمر ما تسمى الهاء عند القدماء هاء السكت، وكان من الممكن إطلاق ذلك على الحمزة في مثل: حمراء وزرقاء .. إلخ.. وهذا معناه بوضوح أن همزة الكلمات السابقة وما يتأثر بها ليست للتأنيث كما يقول بذلك سالف اللغويين، بل إنه حرف جيء به بمجرد إقفال المقطع لتمكين النطق.

وهذا يوافق مقال به (وليام رايت) في كتابه (محاضرات في النحو المقارن للغات السامية) وهو أن الألفين المقصورة والممدودة لا ارتباط لهما بتذكير أو تأنيث، بل ربما كان كل منهما في الأصل يعبر عن فكرة تجريدية^(٤٨).

- ويبعدو لنا أن القول بتطور ألف التأنيث

ويقول الدكتور أنيس موافقاً الجرح إن ما ظننه القدماء هاء منطرفة هو في الواقع امتداد في النفس حين الوقوف على صوت اللين الطويل أو كما يسمى عند القدماء ألف المد- وهي نفس الظاهرة التي شاعت في الأسماء المؤنثة المفردة التي تنتهي بما يسمى بالتاء المربوطة فليس يوقف عليها بالهاء - كما ظنه النحاة بل يحذف آخرها ويمتد النفس بما قبلها من صوت لين قصير (الفتحة) فيخيل للسامع أنها تنتهي بالهاء.

ولقد تطورت تاء التأنيث فاللغات السامية على مراحل ليس هنا مجال تفصيلها وإنما يمكن الإشارة إليها فيما يلي :

أ الأصل في علامة التأنيث هو التاء المنطرفة ، وقد ظلت على حالها في الفعل الماضي وجمع الإناث في اللغة العربية.

ب تطورت في الأسماء المؤنثة إلى حال وسطى وهي النطق بما تاء في حالة الوصل وحذفها في حالة الوقف.

ج الطور الثالث لهذه العلامة هو حذفها مطلقاً وصلاً ووقفاً في كل اسم مفرد مؤنث.

وقد شاع هذا الطور الأخير في معظم اللغات السامية كالعبرية، وفي اللهجات العربية الحديثة فحين نسمع كلمة مثل (شجرة) في لهجات الكلام الآن يخيل إلينا أن التاء المربوطة قد قلبت هاء.

والحقيقة أنها حذفت من النطق وامتد النفس على صوت اللين قبلها فسمع كالألف^(٤٩).

وقد استدل على ما ذهب إليه بإمالة القراء لما قبل

(٤٥) في اللهجات العربية د. أنيس ص ٩٩ وما بعدها .

(٤٦) المصدر السابق ص ١٠٠ .

(٤٧) القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث ص ٨٢ .

(٤٨) المصدر السابق نفس الصفحة .

العربية.

وينتفى بناء على ذلك ما ذكره الدكتور شاهين من أن كل صورة منتهية بألف التأنيث المقصورة أو الممدودة كانت لها صورة منتهية بالهاء.

وإن رأى المحدثين الذى يقوم على أساس أن الألف المقصورة أو الممدودة لا ارتباط لها بتذكير أو تأنيث لا يسانده الواقع فهذه الألف إنما يفهم منها التأنيث كما يتضح من ألفاظ اللغة واستعمالها.

وكون الهمزة الممدودة لإقفال المقطع فقط غير سديد، فالهمزة أصلها ألف كما ترى فى صحرى وصحراء وبشرى وبشراء ونحو ذلك. وأخيراً فإن رأى هؤلاء المحدثين قائم على مجرد التخمين والظن فلا يقبل فى أمور لغوية يجب أن تستند إلى أساس علمى دقيق مؤيد باحجاج والبراهين القاطعة.

فألفغة العربية دقيقة غاية الدقة فى تحديدها للمذكر والمؤنث لأنها لغة المعنى واللفظ على سواء. ففيها علامات للتأنيث يمكن استخدامها عند الحاجة إليها- كما يقول الأستاذ العقاد وفى بعض الأحيان تركت الفرصة أمام اللاهجين ليختاروا ما توحى به نفوسهم من التذكير والتأنيث.

وبهذا نستطيع أن نجزم بأن أمر التذكير والتأنيث عندنا ليس قائما على الفوضى كما ادعى ذلك بعض المحدثين^(٥٠).

المقصورة عن تاء التأنيث غير مسلم والاستدلال بالعامية لا يؤيده

فالواقع أننا ننطق فى العامية (ناجحة) بالهاء النتنى تصير إليها تاء التأنيث عند الوقف ولا تقول (ناجحا) بالألف.

وإذا كان هذا يحدث فى بلدة واحدة تنطقها على الصورة السابقة فلا يمكن أن نفسر على أساسها ألف التأنيث فى الفصحى حيث انعدم منهج الاستقراء العلمى الدقيق.

وقد رد الدكتور عبد الفتاح شلى على الدكتور أنيس فى الاستدلال بالإمالة السابقة بقواه:

(ولكنى لا أستطيع أن أتخذ من إمالة القراء لما قبل هاء التأنيث دليلا على صحة ما ذكر الدكتور أنيس فالإمالة لم تقع فيما قبل هاء التأنيث لأن الهاء حذفت إذ لم يقدروا حذفها، لا، بل لأنها شبيهة بالألف فى الحفاء وقرب المخرج إلى غير ذلك من الأسباب التى ذكرها القراء والنحاة.

ومثل قوله تعالى: (فلا اقتحم العقبة) ومأدراك ما العقبة فك ربة أو طعام فى يوم ذى مسغبة) إلخ النورة (٤٨) - مما فيه الهاء يقرؤها القراء بدون حذف الهاء.

وإذا كان حذف الهاء فى مثل هذه الكلمات فى اللهجات العربية الحديثة فإن القراء يحرصون على النطق بها وإن كانت تأتى خفية شبيهة بالألف فى الحفاء^(٤٩).

وليس من المنهج العلمى السديد أيضا فى هذا اصدد مقارنة الفصحى باللهجات عامية بعدت عن أصلها وتأثرت بلغات أجنبية بعيدة عن طبيعة

(٤٩) الآية ١١ وما بعدها من سورة الليل.

(٥٠) الإمالة فى القراءات واللهجات العربية للدكتور شلى ص ٢٤٣، ٢٤٤.